

مسرح الطفل تربية، تعليم، أم علاج فني ؟

أ/بغالية أحمد

قسم الفنون الدرامية

كلية الآداب واللغات والفنون جامعة وهران

إن تربية الأطفال تعد أخطر مشكلة تواجه البشرية ، ومن هذا المنطلق أولت الدول والشعوب أهمية استثنائية لعملية تربية وبناء الطفل بناءا انفعاليا واجتماعيا وعلميا متوازنا، وحقت بذلك



إنجازات كبرى في هذا الميدان منذ بداية القرن العشرين، وتجلت هذه الانجازات في ميدان التربية ، وفي جوانبها المختلفة (معلم، طالب، منهج، مستلزمات)، ذلك لأن التربية أهم ركن تتبلور فيه شخصية الإنسان من النواحي الوجدانية والفعلية¹.

يعتبر الفن مصدر من مصادر المعرفة والتربية للطفل، بوصفه أداة متميزة تملك مالا تملكه الأدوات الأخرى من المعرفة التقليدية، ولكن يشق هذا الفن طريقه نحو مستقبل أفضل لمفهوم الأسرة والمدرسة والمجتمع، ينبغي أن يغرس الايجابيات في تلك الفئة التي تعد من أخطر شرائح المجتمع².

إن مفهوم دراما الطفل يتحدد بصورة واضحة في عالم الطفل قبل المدرسة، فيما يسمى مسرح ما قبل المدرسة، ومن خصائصه أنه يقوم على لعب الأطفال التلقائي، ولذلك لا بد من تتبع لعب الصغير، وأنواعه وهي: الألعاب الوظيفية، والإيهامية، وألعاب التظاهر، وألعاب الدراما الاجتماعية³

تعكس ممارسة الأطفال لألعاب الدراما الاجتماعية إحساسا داخليا بالرغبة في ممارسة الأدوار الاجتماعية التي خلقوها لها، فبعض الدراسات النفسية التي أجريت على الأطفال دور الحضانة كشفت عن الأدوار التي يفضلها الأطفال، والتي انحصرت في أدوار الأب وأدوار الأم، فالبنت يلعب أدوار الزوجات والأمهات، مضافا إليها أدوار البنات أنفسهم، أما البنون فهم يولعون في هذا السن بلعب أدوار الآباء، أو الأزواج، إضافة إلى أدوار رجال المطافئ والضباط والجنود⁴

يتم استخدام الدراما كقوة مؤثرة في التعليم، إذا ما استطاع المدرس استخدام الدراما كأداة تعليمية، وعملية التكامل بين القدرات والتعليم هي عملية التكامل بين أجزاء شيء واحد، بالنسبة للتكامل في نمو الطفل فهي تشمل على النمو الكامل لشخصية الطفل، تفاعل الطفل مع الآخرين، أما التفاعل مع الآخرين فهي عملية تشير إلى سلوك وردود فعل الطفل، نتيجة

لتأثير المؤثرات الداخلية والخارجية وارتباطها بالمؤثرات الداخلية⁵.

مسرح للطفل والشباب: تسمية أطلقت من طرف (ليون شانسيرال-1.chancere1) (1886-1965)، وهو مسرح للطفل، وهو مغاير ومتميز عن المسرح المدرسي، هذا الأخير يلعب من طرف الأطفال، مسرح من أجل الطفل، يخرج الكبار وبتوجيه جمهور شاب⁶.

من الخطأ النظر إلى لعب الأطفال على أنه هو وعبث ومضيعة للوقت، فالنظر التربوية ترى في اللعب نوعا من الفنون، لأن الطفل يعيش جوا من الأحلام، يمزج فيه الحقيقة بالخيال، كما أن اللعب عند بعض المربين يعتبر نوعا من النشاط الحسي الحركي، أي نوعا من التنفيس عن طاقة الطفل الزائدة⁷.

ليس مسرح الطفل مسرحا سهلا كما قد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى، بل إنه مسرح يتطلب من الكاتب الدرامي معرفة واسعة بعالم الطفل النفسي، هته المعرفة يوظفها حين كتابة النص الدرامي.

وانطلاقا من هذه الحقيقة، فإن المؤلف يهدف في كتابته إلى ضرورة إطلاق الحرية في التعبير لدى الطفل، بشكل إيجابي وليس بشكل سلبي، فعندما نفرض على الطفل نصا أو شكلا

مسرحيا معينا، فنحن نجعله يعبر عما نريد نحن، أما عندما ننمي فيه القدرة على التعبير بحرية تلقائية، سواء بالحركة أو بالكلمة، فإننا نجعله يعبر عما في داخله، فيساعده ذلك في النمو، وفي التكوين السوي لشخصيته⁸.

يجب أن تتوافر في كاتب المسرحية الموجهة للطفل شروط معينة، منها أن يكون صاحب موهبة إبداعية في الكتابة للمسرح، وأن يكون ذا خيال رحب واسع، وذا قدرة متميزة على التعبير السهل الواضح، وأن يكون فاهما متفهما للأطفال، يحبهم ويحترمهم، ويدرك وجهات نظرهم، ولا يستخفف بذكائهم، لا يتعالى عليهم، ولا هو يهبط بهم إلى مستوى يهزؤون منه و يستخفون بهن وعليه أن يكون عارفا بحرفته، قارئاً لكل المسرحيات الممتازة، مواكبا للتطور الدائم، والتطور في شكل دراما الطفل وأسلوبها، وأن يكون قد قرأ تراث أدب الأطفال، وأن يجعل للمسرحية قضية واضحة، شيقة الحوادث والحركة والحوار، وأن يضع في اعتباره أن الطفل هو أشد المخلوقات قابلة للتأثر والانفعال بكل ما يسمع ويرى، وأن له عالمه الخاص المفعم بالنشاط والحركة، وانه ذكي يرفض سذاجة عرض الموضوع، وسذاجة عرض الحوار، وأن الأشكال التي يغرم بها الطفل تختلف عن الأشكال التي يقبلها الكبير، وأن يدرك بان المسرحية من الألوان التي يتعاطف الطفل مع

شخصياتها، ومن هنا يجب أن نستفيد من هذا التعاطف بأن نقدم السلوكيات والأخلاقيات، كما يجب على المؤلف مسرحية الطفل أن يكون قادرا على أن يرتد إلى طفولته، فيعرف حاجات الطفل الوجدانية الداخلية، ليحقق الإنسجام الداخلي للطفل المشاهد مع المعرفة بالعالم الداخلي⁹.

إن البنية الدرامية هنا تكون محبوكة بطريقة خاصة، تكون مليئة بعنصر التشويق والمفاجئات، وذلك من أجل الوصول إلى نفسية الطفل، يرى (عمر فطموش) في هذا الصدد وهو منشط تعاونية السنجاب أن المحترفون أخذوا على عاتقهم العمل في مسرح الطفل وكانوا واعين للجانب النفسي للطفل وكذا الجانب البيداغوجي، خاصة وأنهم جلبوا معهم أدواتهم الإنتاجية، وأخرجوا أعمالهم المسرحية الاحترافية، يقول (عمر فطموش): "لا يجب أبدا الاستهانة بالطفل على أنه جمهورا سهلا"¹⁰.

لقد انتبه إلى أهمية مسرح الطفل بعض الدارسين العرب، وفي هذا الصدد يقول (عبد الرحمان ياغي): "إن مسرح الأطفال من أعظم ابتكارات القرن العشرين [...] ولسوف تتضح قيمته وأهميته التربوية، لأن دروسه لا تلقن عن طريق الكتب والمدرسة بصورة مملة مرهقة، بل بالحركة التي

تشاهد [...] فتبعث الحماسة وتخلقها، وتصل إلى الأفئدة التي تعد أفضل وعاءها¹¹.

ليس من السهل أيضا الفصل بين أنواع مسرح الأطفال، فهناك المسرح الموجه للأطفال، سواء مسرح الطفل child theatre، أو المسرح المدرسي sckool theatre، أو المسرح في التربية والتعليم theatre in education، وينقسم بداية من حيث التمثيل إلى نوعين هما، المسرح البشري ومسرح العرائس، كما ينقسم من حيث الإعداد والتقديم إلى ثلاثة أنواع هي: المسرح الذي يعده الكبار ويقدمه الكبار، والمسرح الذي يعده الكبار ويقدمه الصغار، والمسرح التلقائي تحت الإشراف، الذي يعده الصغار ويقدمه الصغار¹².

لابد من التركيز على أن مسرح الطفل سواء في داخل المدرسة أو خارجها (المسرح الحكومي) هو في حقيقته منهج للعب التخيلي، الذي يشبع حاجات الأطفال الابتكارية الخلاقة، لأن النص المسرحي المعروض لا يعتمد على الإرسال فقط، بل يمكن أن يتفاعل من خلال الاستقبال الوارد من الأطفال المشاهدين¹³.

يعد المسرح فعلا اتصاليا، يحتاج إلى نسبة من الارتقاء بمهارات الاتصال والتواصل، وعليه فان ممارسيه ومشاهديه

يكتسبون إمكانيات المشاركة، إلا أنه لا يقتضي مشاركة وجدانية فقط، بل مشاركة فعلية كلامية باعتبار اللغة إحدى المكونات الأساسية للعملية الاتصالية، وهي أهم عناصر الخطاب التواصلي في مسرح الطفل، والتي يتوجب عليها مسايرة حاجات الطفل، لإتاحة فرصة الكسب المعرفي، لأن اللغة تعبير عن الأفكار، والأفكار تعبير عن المعارف، التي هي معيار التطور الاجتماعي، ولغة الطفل في النهاية هي رصيد من المعرفة الخاصة والعلوم القائمة في المجتمع، والطفل تدفعه طبيعته الفطرية إلى الملاحظة والاندماج، وتقليد ما يسمعه من أقوال وما يراه من أفعال، ومن هنا بدأ التفكير في استخدام منهج التعليم¹⁴.

اهتمت الحكومات والمؤسسات الرسمية بمسرح الأطفال، ففي ألمانيا مثلاً حيث لمسرح الأطفال تقاليد عريقة، حيث يعتبر مسرح cripp's théâtre في برلين الغربية سابقاً من الفرق المتميزة التي تقدم عروضاً تتصف بالفراة، في فرنسا حيث بدأ الاهتمام بمسرح الأطفال منذ الخمسينيات، يبرز اسم الكاتب والمخرج (ليون شانسوريل-L.chanceret) (1886-1965)، إلى جانب (كاترين داستيه-C.dasté)، التي أسست فرقة "التفاحة الخضراء" المعروفة للأطفال.

في العالم العربي كانت عروض الدمى هي الصيغة الأولى لمسرح الأطفال، بعد ذلك وفي الستينيات أشرفت الحكومات في البلاد العربية على مسرح الأطفال، ضمن السياسة الثقافية والتربوية الشاملة [...] ومن العروض المميزة التي قدمت للأطفال في العالم العربي عرض "يعيش المهرج"، الذي قدمه الإيمائي اللبناني (فائق الحميصي) عام واحد وثمانون تسعمائة وألف بالاشتراك مع (أسامة شعبان) و(محمد القبيسي)¹⁵.

يعد الاهتمام بمسرح الطفل على مستوى الوطن العربي ضعيفا، فالعرب عرفوا مسرح الكبار اعتبارا من ثمانية وأربعون ثمانمائة وألف على يد (النقاش، القباني، صنوع)، بينما مسرح الطفل لم يعرف إلا من خلال الخمسين سنة الأخيرة تقريبا [...] خصوصا في سوريا ومصر والعراق والجزائر، بحيث عندما نعود إلى واقع المسرح الذي يبدو دوره غائبا أو متعثرا¹⁶، هذا وعلى الرغم من أن مسرح الطفل "منبع للربح المالي" كما يقول (محمد كالي)، وهي الرؤية نفسها عند الممثل (عبد القادر بلكروي) أحد أعمدة أول فرقة لمسرح الطفل المنفصل عن المسرح الحكومي للمسرح الجهوي لوهرا¹⁷.

بغض النظر عن الجانب المادي، فإن مسرح الطفل يلعب دورا هاما في تكوين شخصية الطفل الوطنية والوجدانية والذهنية وإشباع

حاجاته المختلفة، كما تبرز أهميته في تشكيل إنسان سوي قادر على الإنتاج الثقافي والوطني.

إن التجارب التطبيقية أكدت بشكل واضح أن مسرح الطفل بمكوناته الفكرية والجمالية بمقدوره إشباع حاجات الطفل الأساسية، وأضافت أنه يلي الاحتياجات التربوية والتعليمية والنفسية والاجتماعية لدى المتلقي على اختلاف عمره، موضحة أن مردوده في بناء الشخصية الوطنية للطفل يفوق مردود الوسائل الأخرى، باعتباره لا يتوجه إلى السمع والبصر فقط، وإنما يشرك الجانب الحركي أيضاً، مما يضفي جاذبية وتحفيزاً للانتباه.¹⁸

تحكم مسرح الطفل المعايير والمقاييس نفسها التي تحكم مسرح الكبار، فهي الإنتاج المتكامل فنياً، والاتصال البصري من خلال عناصر الإخراج والتمثيل والتصميم ومراقبة الصوت والنص وسواها، ولا بد أن يحدد المسرحيون الفئة العمرية التي يتوجهون إليها بأعمالهم، حيث أن تفاوت السن بين المتفرجين يسبب أعظم المشاكل فيما يتعلق باختيار المسرحيات، فما يقبل به الطفل في سن الخامسة يبدو تافهاً لطفل في سن الحادية عشرة، وما يهز مشاعر هؤلاء قد يسبب الفرع للفئة الأولى¹⁹

يعد كاتب مسرح الطفل من أهم الأدوار، وهناك نوعان من الكتابة والكتاب: أولهما الشاعر والقصاص أو المبدع والآخر هو الباحث، الذي قد يكتب نموذجاً واحداً يعبر عن وجهة نظر، إلا

أنه وجد في المبدع أفضلية توفير عنصر التشويق والإثارة مع إبراز الصراع بسلاسة وبلا افتعال .

لم تعد الأفكار الكبيرة وحدها هي المطلوبة في المسرح (الطفل)، هناك أهداف أخرى يتلقاها الطفل بلا افتعال، أهداف لغوية، رفع الذوق العام، التنمية النفسية والوجدانية، تنمية بعض المهارات، تزويده ببعض المعلومات، مع تهذيب تفكيره عموماً، هناك بعض الشروط العامة يلزم مراعاتها حين مخاطبة الطفل سواء بالمسرح أو غيره:

-الاختيار المناسب للحكاية التي تهيئ للفعل الدرامي.
-مراعاة المرحلة العمرية، سواء للطفل المشاهد أو في العمل الفني نفسه.

-مراعاة القواعد النفسية والقيم العليا والاجتماعية.
-العمل على زيادة خيال ومدركات الطفل.

-المباشرة التي تحترم عقل الطفل، وتنشط ذهنه أيضاً.

-متابعة المراحل العمرية للطفلة وخصائصها.

وإذا كان الكاتب بالضرورة يستطيع أن يعبر و يظهر الفوارق الايجابية أو السلبية في أي مرحلة وأثارها الاجتماعية والتربوية وغيرها، فلا بد أن يتمكن من معرفة هذه الدلالات الرمزية عند الأطفال بمختلف مراحلها، حتى يستطيع أن يستخدم لغتهم

الإرشادية، وبذلك ينجح في مزج العالم الفكري والفني الذي يأنسونه بحكم انتمائهم إليه.

ليست الكتابة للأطفال أمرا هينا، فهي أصعب وأكثر تعقيدا من الكتابة للكبار، وذلك لأن العالم مجهول بالنسبة للطفل، وهذا الطفل له خصائصه العقلية والجسدية والنفسية، التي يجب أن يراعيها من يريد الإقدام على تجربة الكتابة²⁰، "ففي المرحلة الأولى من الطفولة التي تسمى بالطفولة المبكرة يحتاج مسرح الأطفال إلى نص يركز على الخيال، والمرحلة الوسطى من الطفولة تحتاج إلى نص يهتم بالخيال الحر، وفي المرحلة المتأخرة من الطفولة يحتاج إلى نص يهتم بالخيال المرتبط بالواقع ارتباطا شاملا"²¹، وكأنه-المسرح- نوع من المتابعة العلاجية.

أكد علماء النفس على أن النشاط المسرحي من أهم الوسائل المستخدمة لتحقيق الشفاء، فقيام الطفل بتمثيل دور ما في إحدى التمثيليات أو قيامه بمشاهدة تلك التمثيلية يؤديان عادة إلى نقص التوتر النفسي وتحقيق حدة الانفعال المكبوتة، وذلك عندما يندمج في جو التمثيلية، فيمكن من التخلص من الانطواء وعيوب النطق، وذلك بتخلّصه من الصعوبات، فله دور فعال في معالجة أمراض الكلام، إذ هو أداة لمداولة الأطفال من التأناة والفأفة و التلعثم، الأمر الذي أرشد علماء النفس

وأطباء النطق إلى دور المسرح في علاج بعض حالات المرضى عقليا [...] فالطفل المعاق ذهنيا هو طفل عادي إذا عومل كذلك، أما إذا كان التعامل معه انعزاليا يفقد السيطرة وينفلت، وهنا يأتي دور المسرح

وخصوصيته²². تنبع خصوصية مسرح الأطفال من خصوصية المتلقي فيه، فمع أن الأطفال قادرون أكثر من الكبار على الدخول في لعبة الخيال وعلى تقبل الأسلبة في تحقيق عناصر العرض، إلا أنهم أكثر انتباها إلى التفاصيل، مما يجعل من تحضير مسرحية للطفل عملية صعبة، تتطلب خبرة ودراية بكافة المراحل، بدءا من تحديد الهدف المرسوم لهذا المسرح، واختيار الريبورتوار والنص، وانتهاء بأدق تفاصيل العملية الإخراجية وشكل الأداء.

كانت في الماضي تقدم للأطفال عروض مستمدة من كلاسيكيات الأدب ومن التراث التاريخي والديني، كما هو الحال في المسرح المدرسي، فيما بعد ونظرا لندرة النصوص المكتوبة أساسا لمسرح الأطفال، اتكأ هذا المسرح على عالم الحيوان وعلى الحكايا التي ترسم عالما عجائبا يستثير خيال الطفل، مع تحويلها إلى عروض مسرحية من خلال الإعداد في تطور لاحق، وانطلاقا من الرغبة في تنظير مسرح الطفل،

وبتأثير من التجريب مع الطفل ومن خلاله، واستثمار الطاقات المبدعة لديه، صار هناك توجه للتعامل مع مسرح الأطفال بشكل مختلف تماما من خلال الاستغناء عن النص، ودفع الطفل بتوجيه من منشط مسرحي في المدرسة أو المسرح للمشاركة في كتابة النص وتحضير الديكور، وربط التمثيل باللعب، تتم هذه التجارب إما في مدارس تجريبية أو في إطار تجمعات ثقافية، وعمليا لا يكون الهدف الأساسي منها الوصول إلى عرض جاهز بقدر ما ينصب الاهتمام فيها على مسار العملية الإبداعية، وقد ترافق هذا النوع من التوجه المسرحي مع النظرة الجديدة للإبداع الفني، مثل الرسم الحر والتعبير الجسدي، والتعبير الشفوي والكتابي، من جهة أخرى أستخدم هذا التوجه في مسرح الأطفال لغاية علاجية على الصعيد الفني²³.

تعالج المسرحيات في مسرح الطفل الظواهر السيئة، مثل الكذب والخداع، وتبحث على التآخي والسلام والمحبة بين الجميع والرفافة بين الحيوانات ورحمتهم، والهدف من كل هذا هو ترغيب الطفل على الدراسة والاجتهاد، وتعلم الصفات الحميدة والأخلاق العالية من أجل رعاية مواهب الأطفال، وتوفير المناخ الأفضل لهم للظهور والنمو، بعيدا عن الضغوط والأخطار التي يمكن أن تهددهم في هذا العصر، الذي طغت فيه العولمة الثقافية عبر وسائل الاتصال الحديثة، التي

تفرض على الأطفال نماذج فنية تركز على العنف واللامبالاة، وتزرع فيهم قيما غريبة عن ثقافتهم، وهناك مسرحيات أخرى تتحدث عن الطبيعة الجميلة بأزهارها وأشجارها وعصافيرها²⁴.

إن التجربة المسرحية للصغار في حقيقتها هي أسلوب قادر على أن يخلق من المتفرجين نواة المستقبل، فهناك العديد من المواقع الاستكشافية، تعتبر مؤشرا لتجسيدها دراميا، فعلى سبيل المثال "البرامج التلفزيونية" واهتماماتها بنشاطات الطفل الصغير والكبير، مثل التحليق في الفضاء، واكتشاف الذات بواسطة المسابقات المتنوعة، كذلك مركز الاستكشاف الذي يعتبر تجسيدا لصورة الغد المجهول، الذي يتشوق إليه الطفل في عالمه السحري، وتزويده بطاقة مستمدة من الوعي والثقة بالنفس دون غرور، فالمطلوب من أي مسرح مدرسي أو حكومي أن يترجم هذه الابتكارات ويشبع حب الاستطلاع والاستكشاف، وغير ذلك من الخصائص التي تميز الأطفال جميعا، والتي يجب أن تنمو دون أن يفرضها الكبار عليهم، سواء في اللعب أو القراءة أو التعليم أو الثقيف، إذ يجب أن يكون توصية الكبار (أولياء الأمور) والمعلمين بأسلوب دقيق وغير مباشر ولكنه فعال، خاصة عندما يكون زائرا بالحب والحنان، بالإقناع لا بالعنف²⁵.

إن مسرح الطفل يستطيع أن يؤدي كثيرا من الأهداف التربوية والتعليمية، وهو مظهر حضاري يدل على تقدم الأمم ورفيها، ومن ثم فهو جدير بأن يحظى لدينا بكل اهتمام.

المصادر والمراجع:

- 1- ينظر، زينب محمد عبد المنعم، مسرح ودراما الطفل، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 2007، ص 11.
- 2- المرجع نفسه، ص 101.
- 3- فوزي عيسى، مسرح الطفل، دار المعرفة الجامعية، 2008، صص 6-7.
- 4- المرجع نفسه، ص 7.
- 5- جير الدين براين سكس، الدراما والطفل، ترجمة: إمللي صادق ميخائيل، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 2003، ص 199.
- 6- Agnès pierron , dictionnaire de la langue du théâtre, la tipografica vares, 2010, p553.
- 7- فوزي عيسى، مسرح الطفل، ص 7.
- 8- المرجع نفسه، ص 7.
- 9- نفسه، ص 7.
- 10- bouziane ben achour, le théâtre en mouvement, octobre 88 à ce jour, editions dar el gharb, 2002, p231.
- 11- أحمد بلخيري، المصطلح المسرحي عند العرب، البوكليلي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1999، 134.
- 12- زينب محمد عبد المنعم، مسرح ودراما الطفل، ص 145.
- 13- المرجع نفسه، ص 121.
- 14- نقاش غالم، خصائص اللغة ومستوياتها في مسرح الطفل، مجلة فضاءات المسرح، إصدار نخبر أرشفة المسرح الجزائري، جامعة وهران، العدد الأول، جوان 2012، ص 110-111.

- 15-ماري إلياس و حنان قصاب، المعجم المسرحي، ص42.
- 16-ينظر، زينب محمد عبد المنعم، مسرح ودراما الطفل، ص29.
- 17-Mohammed kali, théâtre algérien, la fin d'un malentendu, editions ministre de la culture, première édition, 2005, p100.
- 18-زينب محمد عبد المنعم، المرجع السابق، ص20.
- 19-المرجع نفسه، ص121.
- 20-المرجع نفسه، صص122-123.
- 21-نفسه، ص169.
- 22-ينظر، بوحجر أحلام أميرة، وظيفة المسرح في تعليم اللغة للأطفال، مجلة فضاءات المسرح، صص138-139.
- 23-ماري إلياس و حنان قصاب، المعجم المسرحي، ص43.
- 24-زينب محمد عبد المنعم، مسرح ودراما الطفل، ص223.
- 25-المرجع نفسه، صص24-25.